مهنة المؤدب بالمغرب الأوسط (تلمسان) على العهد الزياني من خلال بعض النصوص النّوازلية المالكية.

The Function of El-Moãdib (teacher) in The Central Maghreb (Tlemcen) under the Zeyani era Through some texts of the Malikiya Nawaziles.

لخضر العربي.
- المركز الجامعي نور بشير؛ البيّض(الجزائر).
- البريد الإلكتروني: *l.lakhdar@cu-elbayadh.dz*

تاريخ الإرسال: 2024/04/27؛ تاريخ القبول:2024/05/21؛ تاريخ النشر:2024/06/15.

الملخص:

نحاول من خلال هذه الوقة إثارة قضية هامة جدا من قضايا التاريخ الاجتماعي والثقافي للمغرب الأوسط، وتشكل أصلا من أصول تمدنه وحضارته، هي قضية حاول الاستعمار الفرنسي -فيما بعد- نفيها بكل الطرق في محاولة منه لإثبات عكسها في الواقع من خلال التبشير والتجهيل ونشر الأمية، لكن المنقب في المصادر الأدبية وحتى المادية لا شك سيعلم علم اليقين زيف ادعاء المستدمر، ويثبت أنّ ما وصلت إليه الأمة اليوم من علم وتطور هو في كل تجلياته نتيجة من نتائج هذه القضية، وثمرة لجهود فئة من فئات مجتمع المغرب الأوسط، فقضيتنا إذا تتصل بتأديب وتعليم الصبيان، والفئة التي حملت لواء القيام بها هم فئة المؤدبين أو المعلمين.

الكلمات المفتاحية: المؤدب؛ الصبيان، التعليم؛ النوازل؛ المكتب؛ تلمسان.

Abstract:

Through this time, we are trying to raise a very important issue of the social and cultural history of the Middle East, an asset of its civilization and civilization, an issue that has attempted French colonialism. After - deny it in every way in an attempt to prove its reversal in fact through proselytism, ignorance and the spread of illiteracy But the prospector in literary and even material sources will no doubt teach the science of certainty the falsification of the reckless claim, It proves that the nation's science and evolution today is in all its manifestations a result of the results of this case. and as a result of the efforts of a category of Morocco's middle society, our case is if it relates to the disciplining of Children. education ", and the category she held the brigade to be the class of disciplinarians or teachers.

Keywords: El-Moãdib **(**Teacher); Children; Education; Almaktab; Alnawazil; Tlemcen.

مقدمة:

تكمن أهمية مصنفات النوازل الفقهية فيما تحتويه من معلومات دقيقة عن الحياة اليومية لمجتمعات المدن الإسلامية؛ فهي تقدّم تقارير- في بعض الأحيان- تنفرد بها عن بقية المصادر الإخبارية الأخرى، وترصد العديد من مظاهر الواقعية عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وحتى السياسية، وعلاقات العمل، وملاحظات حول البنية العمرانية، والتّجارة، والصنائع، وغير ذلك من القضايا المختلفة.

لكن الباحث أمام هذا النّوع من المؤلفات يصطدم بعدّة عوائق منها: إشكالية الافتراضات النّظرية في بعض الأسئلة الموجّهة إلى المفتين؛

والزمان والمكان الذي وقعت فيه؛ وأحوال السائل والمفتي الذي تكفل بالإجابة على المسائل الواردة إليه؛ وهي في الحقيقة جوانب لا تساعد - أحيانا- على حسن استثمار تلك المسائل أو النوازل تاريخيا.

وبالتالي هذه المصادر تعرض فيضا من النصوص التي من شأنها أن تقدم الكثير للباحث في تاريخ المغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط خاصة، ولا يكون ذلك إلا بعد سبر مضمرات هذه المادة الخام، وتمهيد واكتشاف الصعوبات التي تحتوي عليها والتي لابد للباحث أن يحتاط منها حين تعامله مع نص النازلة.

وفي هذه العجالة نستعرض قضية هامة جدا من قضايا التاريخ الاجتماعي والثقافي للمغرب الأوسط، وتشكل أصلا من أصول تمدنه وحضارته، هي قضية حاول الاستعمار الفرنسي -فيما بعد- نفيها بكل الطرق في محاولة منه لإثبات عكسها في الواقع من خلال التبشير والتجهيل ونشر الأمية، لكن المنقب في المصادر الأدبية وحتى المادية لا شك سيعلم علم اليقين زيف ادعاء المستدمر، ويثبت أنّ ما وصلت إليه أُمَّتُنا اليوم من العلم والتطور هو في كل تجلياته من ثمرات هذه القضية، التي ترعرعت بذورها في منابت فئة من فئات مجتمع المغرب الأوسط، فالقضية إذا هي تأديب الصبيان، والفئة التي حملت هذا اللواء هي فئة المؤدبين أو المعلمين.

إن محاولتنا البحث في موضوع التأديب والمؤدِّبين لمن الأهمية بمكان، لكونه يهدف لإظهار منهج تربوي قويم يحتاج إلى كشف مضمراته للإفادة منه في منظومة التربية المعاصرة. ولأن التأديب طريق لمعرفة كيفيات التعامل في تربية الطفل السلوكية والأخلاقية والاجتماعية. كما أنه يستشرف لأبحاث ودراسات مستقبلية تعكف

على سبر الآليات والطرق التربوية التاريخية لدى أهل العصر الذي نتطرق له.

1- معنى تأديب الصبيان:

جاء في اللغة: أنَّ الأدب: "أدبُ النفس والدّرس، ...، وأَدَّبتهُ فتأدبَ، وابن فلانٍ قد استَأدب، في معنى تأدّبَ"، والأدب أيضًا مصدر أدَبَ يأدِبُ، بمعنى دعا إلى مأدبة(الجوهري؛ إسماعيل بن حماد(393هـ)، (1979)، ج:1، ص:86).

وقيل: "أَدُبَ، كحَسُنَ، أدبًا فهو أديبٌ، ...، وأدَّبَهُ: علَّمَهُ، فتأَدَّبَ وأستَأْدَبَ"(الفيروزآبادي(ت817هـ)، 2004، ص: 86؛ وأنظر: الرازي(ت 660هـ)، 2006، ص:13).

وتأدب بأدب القرآن الكريم، أو أدب الرسول ﷺ أي تأسى به، وأدبته تأديبا: أي علمته رياضة النفس، وراضه على محاسن الأخلاق ولقنه فنون الأدب وجازاه على إساءته، وسمي أدبا، لأنه يأدِبُ الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح. والتأديب هو: التهذيب والمجازاة، وأصل الأدب: الدعاء، ومنه قيل: إذا عاقبته على إساءته أدبته تأديبا؛ لأنه سبب يدعو إلى حقيقة الأدب(المعجم الوسيط، (2004)، ط:4، ج:1، ص:9؛ نعيمة بنت عبد العزيز، ح، (سبتمبر2022)، مج:9، ع:3، ص: 203).

أما اصطلاحا، ذكر ابن قيم الجوزية أنّ علم الأدب: هو علمُ إصلاح اللسان والخطاب، وإصابة مواقعه، وتحسين ألفاظه، وصيانته عن الخطأ والخلل (ابن قيّم الجوزية، (ت751هـ)، (2003م) ج: 2، ص: 356).

ويقول القاضي الجرجاني هو: "عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ" (الجرجاني، ع، (ت816هـ)، (2004)، ص:16).

وجاء عند ابن خلدون(ت808هـ) أن علم الأدب يختص بـ: "حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط، وهي القرآن والحديث"(ابن خلدون (ت808هـ)، 2004، ص:573).

وعند ابن حجر العسقلاني: "الأدب: الأخذُ بمكارم الأخلاق"(ابن حجر(ت853هـ)،(2013)، ج: 18، ص: 287).

ويسمى المشتغل بتأديب الناشئ وتعليمه بـ: "المؤدب"، وهو مرشدٌ ومربٍّ يخرج ممن يقع تحت وصايته الأخلاق السوء بتربيته، ويجعل مكانها خلقًا حسنًا(أبو حامد الغزالي(ت505هـ)، (2014)، ص: 60). ويستخدم أهل المغرب إلى جانب لفظ كلمة "المؤدب" لفظ "المعلم" للدلالة على الوظيفة ذاتها(عبد الواحد المراكشي،(1997)، ص:504، 507؛ الهلالي(ت903هـ)، (2013)، ص:232؛ ابن الحاج المالكي، (د. ت)، ج:2، ص:306، 307، 309).

يظهر من خلال المعاني السابقة اللغوية والاصطلاحية أن التأديب ينبني على قضيتين هامتين جدا، تتمثل الأولى في تزكية النفس عن طريق التربية على مكارم الأخلاق، وتتركز القضية الثانية في تعليم الناشئ وتنمية مداركه بتلقينه كلام الله ﷻ، واللغة العربية، والحديث الشريف، ثم المتون العلمية حسب ما تقتضيه مراحل تعليم الولدان.

2- مهنة المؤدب في المجتمع الإسلامي الأول:

أما عن جذور هذه المهنة في الحضارة العربية الإسلامية فقد اقترنت بداياتها الأولى ببعث الله ﷻ للنّبي محمد ﷺ رسولا بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله تعالى وسراجا منيرا، ولتبليغ رسالة ربه إلى خلقه

كافة، يقول الله تعالى: "هُوَ ٱلذِے بَعَثَ فِے ٱلۡأُمِّيِّيۡنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِے ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ"(سورة الجمعة، الآية:2) وكان سبيله ﷺ في ذلك اتباع منهج التعليم في إيصال الدعوة وتبليغ الحجة لإجلاء أدران الشرك عن العقول والقلوب، ومن فضل الله تعالى على نبيه ﷺ أن مكّنَ له في نشر رسالة الإسلام في الكثير من القبائل العربية، فكان ﷺ خير مؤدب ومعلم وقدوة لمجتمع المدينة، دلت على ذلك السنن الباقية من الأحاديث الجمة التي تضمنتها بطون صحاح السنة، فقد جاء في هديه ﷺ: "يَا غُلَامُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ"(البخاري، كتاب الأطعمة(رقم:5376)، ص:1370)، وجاء عنه ﷺ من حديث سماك عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لَأَنْ يُؤَدِبَ أَحَدُكُمْ وَلَدَهُ خَيرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّقَ كُلَّ يَوْمٍ بِنِصْفِ صَاعٍ عَلَى المَسَاكِينِ"(ابن قيم الجوزية(ت751هـ)، (د.ت)، ص:330). والنصوص في هذا الباب أكثر من أن تضمها هذه الورقات.

وحمل الخلفاء الراشدون والصحابة ﷺ على عاتقهم بعد رسول الله ﷺ مهام التبليغ والتعليم لدين الله ﷻ، فتنامت حلق تدارس القرآن وتعليمه، وأصبحت مكة والمدينة مراكزا شعاع ديني وعلمي تحج إليهما وفود الراغبين في معرفة أمور دينهم ودنياهم.

وفي العصر الأموي برزت معالم مهنة المؤدب، وأهتم الخلفاء وحتى بعض الخاصة بتأديب بنيهم وتربيتهم وإصلاح أحوالهم، ولعل وصية الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (65-86هـ/ 684-705م)

لمؤدب ولده تستجلي لنا هذا الحال، حيث يقول: "علّمهم الصّدق كما تعلمهم القرآن، وأحملهم على الأخلاق الجميلة، وروِّهم الشعر يشجعوا وينجدوا، وجالس بهم أشراف الناس وأهل العلم منهم، فإنهم أحسن الناس رعةً وأحسنهم أدباً، وجنبهم السّفلة والخدم، فإنهم أسوأ الناس رعة وأسوؤهم أدباً، ومُرهم فليستاكوا عرضاً، وليمصوا الماء مصا ولا يعبوه عبّا، ووقرهم في العلانية، وذللهم في السر، وأضربهم على الكذب، إن الكذب يدعو إلى الفجور، والفجور يدعو إلى النار، وجنبهم شتم أعراض الرجال، فإن الحر لا يجد من عرضه عوضاً، وإذا ولوا أمراً فأمنعهم من ضرب الأبشار فإنه عار باقٍ ووتر مطلوب، وأحملهم على صلة الأرحام، وأعلم أن الأدب أولى بالغلام من النسب"(ابن منقذ، أ. (1987)، ص: 230).

وفي العصر العباسي أصبحت مهمة المؤدب إحدى أبرز حلقات التعليم في عصر النهضة العلمية، ولعل مضامين وصية الإمام مالك رحمه الله في رسالته للخليفة العباسي هارون الرشيد(170-193هـ/786-809م) بتأديب ابنه تشهد لذلك، يقول رحمه الله: "أدب ولدك، ومن وليت أمره على خُلُقك وأدبك، حتى يتأدَّبوا على ما أنت عليه، فيكونوا لك عوناً على طاعة الله، بلغني عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كل مؤدَّب يجب أن يؤخذ بأدبه، وإن أدب الله عز وجل هو القرآن"(عبد البديع، ص، (1981)، ص:133).

وكذلك كتب الخليفة هارون الرشيد وصية، يتوجه بها لخلف الأحمر النحوي، مؤدب ولده الأمين، وقد ذكرها ابن خلدون في مقدمته المعروفة، وذكر أنها تضمنت أحسن طرائق التعليم، قال خلف الأحمر(أبو محرز خلف بن حيان من علماء البصرة في اللغة والنحو، ت180هـ)

أرسل: "إلي الرشيد في تأديب ولده محمد الأمين: "يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مُهْجة نفسه وثمرة قلبه، فصيّر يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة. فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرّفه الأخبار، ورَوِّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصّره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلاّ في أوقاته، وخُذْه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرّن بك ساعة إلاّ وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تخرق فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقَوِّمْه ما استطعت بالقرب والملاينة، فان أباهما فعليك بالشدة والغلظة" (ابن خلدون (ت808هـ)، 2004، ص:559؛ الهاشمي، س. أ، (1979)، ط:27، ج:1، ص:183-184).

وكانت بلاد المغرب الإسلامي على نفس خطى المشرق في التعليم وامتداد له بمختلف علومه ومذاهبه، وبات العروة الوثقى في انتقال ونشر الدعوات السياسية والحركات المذهبية، وكان مسلك الدعاة في بلوغ مراميهم المذهبية والسياسية، وتمكنوا من خلال نشاطهم التعليمي من تأسيس دول مستقلة عبر بلاد المغرب، كالدولة الرستمية بتاهرت(161-296هـ)، والدولة الشيعية الإسماعيلية برقادة(297-362هـ)، والدولة الأدارسة (172-405هـ)، والدولة الأغلبية (184-296هـ)، وغيرها من دول هذا العهد(بديوي، 2010، ص: 45، 53، 65، 82).

وشكل التعليم ركنا أساسيا في تأسيس دولتي المرابطين(430-541ه) والموحدين(541-668هـ)، فقد انتهج مؤسسوهما (عبد الله بن ياسين ت450هـ؛ المهدي بن تومرت ت424هـ) التدريس والتعليم من أجل التمكين لمشروعيهما السياسيين، انطلاقا من مرجعيات دينية مختلفة،

فالمرابطون اعتمدوا مذهب دار الهجرة نبراسا لهم وهو على السنة، أما الموحدون ولا سيما المهدي بن تومرت فقد اتخذ مذهبا خاصا به، عبارة عن خليط من الأفكار المذهبية ضمنها في كتابه: "أعز ما يطلب" وهي ليست من التوحيد في شيء(بديوي، 2010، ص ص:134- 201).

واشتهر كثير من أهل هذه البلاد المترامية الأطراف بمهنة التأديب التي تعتبر أول مرحلة في تعليم الصبيان. ومنهم على سبيل المثال لا الحصر:

أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان(142-213هـ) تلميذ الإمام مالك رحمه الله، وقد دخل مع أبيه القيروان، ثم رحلا إلى تونس فأقاما بها، ثم لما بلغ ثماني عشرة سنة من عمره علّم القرآن بمجردة(المالكي، (1994)، ج:1، ص:254-255).

وأبو عبد الله الصنعاني الشيعي (ت298هـ)، الداعية الإسماعيلي العبيدي بإفريقية والمغرب، امتهن تأديب الصبيان بقبيلة كتامة من المغرب الأوسط وبلاد ايكجان(ابن سحنون، (2010)،ص:61-62).

وأبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي(ت336هـ)، وهو من أئمة طائفة الخوارج النّكار، وكان في ابتداء أمره يعلم الصّبية في تقيوس من بلاد قسطيلية، وبقي على ذلك برهة إلى أن حدثته نفسه بالخروج على سلطان العبيديين سنة 326هـ(ابن سحنون، (2010)،ص:63).

ومنهم أبو إسحاق الطيّار (ق6هـ) من كبار أولياء تلمسان، ومعلمي كتاب الله(يحي بن خلدون، (1980)، ج:1، ص:106). ومنهم أبو عبد الله المسناوي من أهل الورع والصلاح، إمام في الفرائض، وكان يعلم كتاب الله بتلمسان حسبة لله تعالى(يحي بن خلدون، (1980)، ج:1، ص:118). وغيرهم مما نحى هذا الطريق كثير.

وذاعت كثير من الأعمال العلمية التي وضعت القواعد الأولى التي تضبط العلاقة بين المؤَدِب والمؤَدَب، أو بين المعلم والمتعلم، ومنها على سبيل المثال: كتاب "آداب المعلمين" لمحمد بن سحنون (ت 256هـ)، وكتاب "سياسة الصبيان وتدبيرهم" لابن الجزار القيرواني (كان حيا 350هـ)، وكتاب "الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين" لأبي الحسن علي القابسي(ت 403هـ).

وتضمنت هذه المؤلفات الحديث عن التعليم الأولي: "تعليم الصبيان" أو "تأديب الصبيان"، وأماكن التعليم "المكاتب" أو "الكتاتيب"، حيث أصبحت الآراء الفقهية التي جاؤوا بها في ميدان التربية والتعليم الأسس التي قامت عليها الحركة التعليمية في بلاد المغرب الإسلامي عامة وبلاد المغرب الأوسط خاصة(محمد بن فارس، ج.(د. ت)، ع:65، ص:16).

كما انبرى ثلة من المتأخرين إلى التأليف في هذا الميدان، في إطار كتب مستقلة أو في شكل فصول ضمن مؤلف متعدد الفنون، ومنهم على سبيل المثال:

ابن الحاج العبدري المالكي(737هـ) في مؤلفه "المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت بيان شناعتها وقبحها"، ومقصد الكتاب ضرورة تجديد النية وإخلاصها لله ﷻ في كل الأعمال ابتغاء وجه الله ﷻ، لأن قبول الأعمال متوقف على القصد "النية" وتضمن الكتاب موضوعات عديدة وفي مختلف مجالات الحياة التي تستوجب حضور النية أبدا، وعقد ابن الحاج فصولا من بين تلك الموضوعات خصها بتعليم الصبيان المتعلق بأولى مراحل التعليم، جاءت على النحو الآتي:

فصل في ذكر آداب المؤدب.

فصل في ذكر أسباب أولياء الصبيان(يعني أوجه تكسبهم، وظائفهم).

فصل في صفة توفيته ما نواه.

فصل فيما يأمر به المؤدب الصبي من الآداب.

فصل في انصراف الصبيان من المكتب.

فصل في تزويق الألواح. (ابن الحاج المالكي، (د. ت)، ج:2، ص ص:305-334).

وفصل آخر جاء متفردا في جزء آخر من كتابه تحت عنوان: "فصل في تربية الأولاد ومشيهم على قانون الشريعة وترك ما عداها وحسن السياسة في كل ذلك"(ابن الحاج المالكي، (د. ت)، ج:4، ص:295).

وعموما تضمنت هذه الفصول المسائل الأساسية التي تنبني عليها مهمة المؤدب، حيث تطرقت للشروط التي يجب توافرها في شخصه، والمكتب وما يجب أن يكون فيه من مرافق وغيرها ، وطبيعة العلاقة بين المؤدب والصبيان، والمواد التي تلقن للصبيان، وطبيعة العقوبات وشروط تنفيذها.

وعبد الرحمن ابن خلدون (ت808هـ) الذي خصص الفصل التاسع والثلاثين من كتابه "المقدمة" لتعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه، حيث بين طرق التعليم والفرق بينها ومدى نجاعتها عند أهل المشرق والمغرب، وأضاف فصولا أخرى تتعلق بوجه الصواب في تعليم العلوم، وتأثير الشدة على المتعلمين وغيرها(ابن خلدون، ع.(2003)، ص:556، 558، 551).

وأحمد بن أبي جمعة المغراوي الوهراني المالكي (ت920هـ)، كتاب "جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض بين المعلمين وآباء الصبيان"، وهذا المؤلف يعتبر صلة للفكر التربوي الذي جاء به محمد بن سحنون والقابسي وغيرهم مما سبقت الإشارة إليهم. وتضمن كتاب جامع الجوامع قضايا تعليمية وتربوية في غاية الأهمية ومنها: الحذقة(وهي ختم القرآن)، وآداب المعلم والصبيان، وطرق المجازاة ثوابا أو عقابا، وأوقات الدراسة ومواسم العطل(بسمة، خ. بلقاسم، ب. (أكتوبر 2022)، مج:06، ع:02، ص ص:1553-1554). وغيرهم ممن عني بالتأليف في هذا الفن من العلوم، فضلا عن شذرات قيمة جاءت في كتب الحسبة والنوازل الفقهية.

وأصبح التعليم في العهد الزياني(633-962هـ) حجر الزاوية، ومحور النشاطات العلمية والسياسية، وضمن أولويات سلاطين بني زيات الذين بذلوا جهودا معتبرة في استقدام العلماء وتقريبهم، وبناء المدراس والمعاهد والزوايا للتعليم والإقراء، وإقامة خزائن الكتب، والاحتفاء بمجالسة العلماء. وساعد النظام التعليمي الذي أرسى معالمه بنو عبد الواد لأكثر من ثلاثة قرون على توسيع المدارك ونشر المعارف، وترسخ العلوم النقلية والعقلية، حتى أصبحت عاصمة المملكة الزيانية تلمسان مهوى طلبة العلم، القادمين من المشرق والمغرب والأندلس. وقد كشفت مصادر العصر على وجود مراحل للتعليم، ونظام سنوي للتدريس يعتمد على التدريس زمن الشتاء والصيف وتتخللهما عطل للإجمام؛ وطرق مختلفة للتدريس منها التلقين، والقراءة من الكتاب على الشيخ الذي يتولى الشرح ويقد الطلبة شروحاته، ومنها استخدام اللوح أو الورق لإثبات

التمارين أو الأشكال بالنسبة للعلوم العقلية، بالإضافة إلى المناقشة والمحاورة والمناظرة(قريان، 2010، ص ص:257- 273).

3- مهنة المؤدّب في العهد الزياني:

تشير كتب النّوازل إلى فئة المؤدبين، أو معلمي المكاتب وواجباتهم ودورهم في التّعليم وتفيدنا إحدى النّوازل أنّ المؤدّب كان يحصل على أجرة مقابل تحفيظه القرآن الكريم للصبيان(الونشريسي(ت914 هـ)، (1981)، ج: 7، ص:156، 237؛ ج:8، ص:16؛ المازوني(ت883هـ)، (2004)، ج:1، ص:196).

ومن خلال مصادر العصر يظهر أن عدد المؤدبين كان كثيرا داخل المجتمع الزياني، خاصة في العاصمة تلمسان، حيث كان الموضع المعروف "بمرسى الطلبة، دربا واحدا، كان يجتمع في مسجده نحوا من أربعين، بين مدرس وصاحب فائدة، ...، كانوا كأنهم إخوة، ...، وكان الصبيان يقرؤون تحت المسجد في مساطب بنيت"،(ابن مرزوق التّلمساني(ت781 هـ)، (2008)، ص: 182 وما بعدها). بالإضافة إلى هذا الدرب هناك العديد من المكاتب، التي كانت منتشرة في أحياء المدينة، منها على سبيل المثال مكتب بسويقة إسماعيل(ابن مرزوق التّلمساني(ت781 هـ)، (2008)، ص:199، 298).

ولقد تحدث ابن خلدون عن تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية في طرقه يقول: "اعلم أن تعليم الولدان للقرآن شعار من شعار الدّين، أخذ به أهل الملّة، ودرجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن وبعض متون الأحاديث"(ابن خلدون، ع.(2003)، ص:556).

ومن خلال هذا النّص يبدو أنّ تعليم الأحداث كان في بداية الأمر يتم بحفظ كتاب الله ﷻ، ويعلل ذلك ابن خلدون بكونه شعار من شعار الدين سرى عليه أهل الملّة منذ عهد المصطفى ﷺ، ولأنه أدعى لحصول الإيمان ورسوخ العقيدة، وتعلقه بالحياة الدّينية والدنيوية للإنسان، وبالتالي صار القرآن الكريم أصل العلوم الذي ينبني عليه ما يحصل بعده من ملكات، لأن تعلمه في الصغر أشد رسوخا(ابن خلدون، ع.(2003)، ص:556).

أما عن طريقة تعليم وتأديب الأحداث في مدينة تلمسان لم يكن يختلف عما كان ساريا في أقطار وحواضر بلاد المغرب، فابن خلدون الذي تقلب في بلاطات دول هذه البلاد وجاب مناطقها، وكتب عن طبائع أهلها وعاداتهم يقول: "فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرّسم ومسائله(أنظر التعليق رقم:1) واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث ولا من فقه، ولا من شعر، ولا من كلام العرب إلى أن يحذق(أنظر التعليق رقم:2) فيه أو ينقطع دونه، ...، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر، أمم المغرب في ولدانهم إلى أن يتجاوزوا حدّ البلوغ إلى الشّبيبة، وكذا في الكبير إذا راجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره. فَهُمْ لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم"(ابن خلدون، ع.(2003)، ص:556).

من خلال مقالة ابن خلدون تتجلى معالم منهج التلقين لدى المغاربة في عصره، وبعد أن يسترسل في بيان طريقتهم في التعليم، يصنف منهجهم هذا كأحسن طريق لتدريس وتحفيظ القرآن الكريم في العالم

الإسلامي آنذاك. وهذا ما توصل إليه بعد أن قارن مناهجهم بمناهج أهل الأندلس وبلاد المشرق.

4- شروط المؤدب من خلال الفقهاء والمفتين:

اشترط الفقهاء في المؤدب"...أن يكون مهيبا لا في عنف، لا يكون عبوسا مغضبا، ولا مبسطا، مرفقا بالصبر ذو لين، وينبغي أن يخلص أدب الصبيان لمنافعهم"(الونشريسي(ت914 هـ)، (1981)، ج: 8، ص:175)، ويعدل في التّعليم، ولا يفضل فيه بعضهم على بعض ولو تفاضلوا في الأجرة(الونشريسي(ت914 هـ)، (1981)، ج: 8، ص:156؛ القابسي، أ. (1986)، ص:97، 100، 139)، وليتفرغ للصبيان، فلا يجوز له الاشتغال بما سواهم، لأنه أجير على إقرائهم(محمد سحنون، (1972)، ص:98)، وعليه أن يملك الدّرّة والفلقة، ويتفقد الصّبية بالتّعليم والعرض للقرآن الكريم، ويخصص له وقتا كيوم الخميس وعشية الأربعاء، ويرخص لهم يوم الجمعة(محمد سحنون، (1972)، ص:98؛ الونشريسي(ت914 هـ)، (1981)، ج: 8، ص:239؛ بلغيث، م. (2007)، ص:20-24).

كما يلزمه أن يعلمهم ما يتصل بأمور دينهم من الوضوء وصفة الصلاة. كما يتعاهدهم بتعليم الدعاء ليرتبطوا بالله عز وجل ويعتصموا به ويرغبوا إليه، ويعرفهم عظمته وجلاله تبارك وتعالى، فيكبروا ويشبوا على ذلك(محمد سحنون، (1972)، ص:97).

ولا يستعمل الصّبيان في حوائجه، إلاّ إذا سمح آباؤهم بذلك، ويضرب على أرجلهم ثلاثا أو خمسا، أو سبعا مع الرّفق، ولا يمنعهم من الانصراف لحاجتهم (المجليدي، (ت1094هـ)، (د. ت)، ص: 71؛ ابن الإخوة (ت729هـ)، (1937)، ص ص:170-171).

ومن خلال هذه الشروط يتضح لنا أنّ مهمّة تأديب الصّبيان لم تكن بالأمر الهيّن، وكانت تكتسي أهمية كبيرة، باعتبارها مرحلة حساسة في حياة ومسار طالب العلم؛ وفي نظر صابرة خطيف لم يكن التأديب مجرد عملية تعليمية لمجموعة من المهارات وحسب، بل يمثل لبنة جوهرية في تكوين شخصية سوية وفق المبادئ التي تحكم المجتمع(خطيف، ص. (2003-2004)، ص:199).

وكانت مهنة المؤدب تتم على عقد إجارة وفق شروط كمدة العقد وأجرة المؤدب وما يُعلَّمُ للصّبي، كان يتفق عليها في عقد محرر عندما يقرر الأب وضع ابنه عند المؤدب للتعلم. وصفة هذا العقد بحسب ما جرى به العمل عند أهل المغرب الإسلامي ما أورده عبد الواحد المراكشي على النحو الذي يأتي:

"استأجر فلان بن فلان فلان بن فلان المعلم، ليعلم ابنه فلانا أو ابنته فلانة أو بنيه فلانا وفلانا وفلانا القرآن نظرًا أو ظاهرًا والكتب والخط والهجاء عاما أوله شهر كذا من سنة كذا بكذا وكذا دينارا صفة كذا يؤدى إليه كل شهر، ...، ويدفع إليه في كل شهر في أوله من دقيق القمح الطيب الريون الجيد الطحن ربعين أو ثلاثة بوزن كذا ومن الزيت نصف ربع، ...،بكيل كذا، ويشرع المعلم في التعليم المذكور وعليه الاجتهاد؛ ....، ...، ويدفع إليه في عيد الفطر كذا وفي عيد الأضحى كذا ويعطيه عند حذقة الصبي فلان القرآن كله كذا شهد"(المراكشي، ع. (ت647هـ)، (1997)، ص ص: 504-507).

وكان المؤدب يباشر إقراء وتعليم الصبية في أماكن يتصل بناؤها بالمساجد عادة، أو هي من ملحقات المساجد، وقد عرفت في المصادر بأسماء مختلفة منها: المسجد(الونشريسي، (ت914 هـ)، (1981)، ج: 1،

ص:139)، والخريبشة (الهلالي(ت903هـ)، (2013)، ص:47؛ ابن مرزوق التّلمساني(ت781 هـ)، (2008)، ص: 182 وما بعدها). بالإضافة إلى المكتب الذي قد يكون مستقلا أو بعيدا عن المسجد(ابن مرزوق التّلمساني(ت781 هـ)، (2008)، ص:199، 298).

ولعل المقصد من جعل هذه الهياكل (الخريبيشة، المكتب) بعيدة نوعا ما عن المساجد أو ملحقة بها إنما لتنزيه المساجد أن يتخذها الصبيان طرقا، وتوقيرا لها بإبعاد ضجيجهم وفوضاهم عنها، ولإظفاء السكينة على المسلمين الذين يرتادونها من أجل الصلاة والذكر والتعلم.

وتفيدنا المصادر ببعض الأسماء الّتي مارست مهنة التّأديب في مدينة تلمسان، منهم على سبيل المثال: أبو الحسن بن النّجارية(أنظر التعليق رقم:3)، وأبو يوسف يعقوب بن علي الصنهاجي(أنظر التعليق رقم:4)، وكان أبو عثمان سعيد بن أبي الفضل بن قراقش من قرابة أبي العباس أحمد بن مرزوق (والد الخطيب) يقرئ الصبية(ابن مرزوق التّلمساني(ت781هـ)، (2008)، ص: 235).

وسواهم في هذا الدرب كثير، وإن ما ذكرناه يقع محل الشاهد فقط على عظم دور هذه الفئة في المجتمع الزياني، وسيجد المتصفح لكتب التراجم المعاصرة لهذا العهد العديد من الشخصيات البارزة التي شغلت المهنة ردحا من الزمن، وكذلك سيتعرف على الكثير من طلبة العلم البارزين الذين مروا في تعليمهم بهذه المرحلة من التعلم.

إن الجدول أدناه يوضح أهم القضايا التي تضمنت المسائل الخاصة بمهنة التّأديب من خلال بعض المصادر التي نظرت لآداب المهنة، وأيضا من خلال كتب الفقه والنّوازل التي تناولت بعض مشاكل المهنة التي

عادة ما جاءت الإجابات عنها مفصلة في ثناياها، والتي في مجملها ترجع للأصول التنظيرية.

وللإشارة فإن معظم المسائل الواردة في الجدول جاءت مفصلة في ثنايا هذه الورقة، لذا جاء ذكرها هنا في الجدول مجملة حسب توزيع مواضيعها في النماذج (المؤلفات) المذكورة.

	المُـفتُونَ:			
المسَائِلْ:	القابسي	محمد بن سحنون	الونشريسي	المازوني
	الرّسالة المفصّلة	آداب المعلّمين	المعيار	الدّرر المكنونة
- ما يشترط في المعلّم أو المؤدب.	ص: 96،126.	ص: 84،85.	ج: 8، ص: 243،250.	ج: 3، ص: 71.
- أجرة المعلّم	ص: 97،100،139.	ص.ص: 119-126.	ج: 7، ص: 156،237 / ج8، ص16.	ج: 1، ص: 16.
- ضرب المعلم للصبيان	ص: 126.	ص. ص: 88-94.	ج: 2، ص:267.	❖
- مجاوزة المعلّم الحدّ في ضرب الصّبي	❖	ص: 135،136.	ج:2،ص: 269.	❖
- ما يجب تعليمه للصبيان	ص: 112،113.	ص: 100،118.	❖	❖
- إقراء الصبيان في المساجد	ص: 126.	❖	ج:7، ص36،83.	❖

خاتمة:

نخلص بعد هذا العرض إلى أن مهنة التأديب كانت مبنية على جملة من الشروط والآداب التي كان على المؤدب التحلى بها في خضم تأديته لمهامه، لذلك جاءت النوازل المسجلة في الجدول تعرض أخطاء المؤدبين في بعض الأحيان، وتأكد على ضرورة مراعاة المؤدبين وتطبيقهم

للمنهج المتبع في تعليم الولدان وبذل الجهد في ذلك، وهذا ما تؤيده النصوص النوازلية والفقهية التي سبق ذكرها.

ولعل القضية محل البحث تسوقنا إلى إعادة النظر في مسألة مناهج التعليم المعاصرة، وتلزمنا بضرورة النهل من هذا المنهج التربوي القويم الذي يحتاج إلى التعمق في كشف مضمراته للإفادة منه في منظومة التربية المعاصرة. ولأن التأديب طريق لمعرفة كيفيات التعامل في تربية الطفل السلوكية والأخلاقية والاجتماعية. كما أنه يستشرف لأبحاث ودراسات مستقبلية تعكف على سبر الآليات والطرق التربوية التاريخية لدى أهل العصر الذي نتطرق له. وهذا بتكاثف جهود المختصين في حقول المعرفة التاريخية والاجتماعية والتربوية والنفسية. خاصة وأن دول العالم اليوم ترصد ميزايات ضخمة من أجل تطوير برامجها التربوية والتعليمية من أجل مسايرة العصر وبناء فرد صالح يتمتع بعمق الهوية ومتشبع بالوطنية. لذا كان التراث التعليمي الذي تضمنت هذه المحاولة بعض جوانبه ومصادره نقطة مفصلية في تحقيق ما يقوم عليه المجتمع، بل ويرتكز عليه للانطلاق نحو بناء المجتمع والحضارة.

التعليقات:

1- رسم المصحف: هو ما كتب به الصحابة المصاحف زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولذا ينسب إليه فيقال: الرسم العثماني. (صابر، ح.(1984)، ط:1، ص:131).

2- يحذق: يقال حذق الصبي القرآن، تعلمه كله، أي حفظه. (الفيروزآبادي، م، (2004)، ط:1، مادة: حذق، ص: 887).

3- من أصحاب المقامات، وأرباب الأحوال، وكان يعلم القرآن، دفن بالجامع الأعظم بمحاذاة قبر السلطان يغمراسن بن زيان. "، (ابن مرزوق التّلمساني(ت781 هـ)، (2008)، ص: 170؛ يحي بن خلدون، (1980)، ج:1، ص:122).

4- كان رجلا قانتا، من أهل الزهد والورع، من بني علا الناس بن حماد صاحب القلعة، برز في القراءات والتعليم، قرأ عليه جل أهل تلم سان، وقبره خارج باب الجياد، قرأ عليه القرآن الكريم أبو العباس أحمد بن مرزوق (ت 741هـ ـ). ابن مرزوق التّلمساني(ت781 هـ ـ)، (2008)، ص: 170؛ يحي بن خلدون، (1980)، ج:1، ص:119).

قائمة المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

* البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل(ت256هـ)، (2002)، **صحيح البخاري**، ط:1، دمشق-بيروت: دار ابن كثير.

1- ابن الإخوة محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت729هـ)، (1937)، **معالم القربة في أحكام الحسبة**، تحقيق: روبن ليفي، كيمبرج: مطبعة دار الفنون.

2- بديوي يوسف علي، (2010)، **عصر الدويلات الإسلامية في المغرب والمشرق من الميلاد إلى السقوط**، ط:1، بئر توتة-الجزائر: دار الأصالة.

3- بلغيت محمد الأمين، (2007)، **فصول في التاريخ والعمران بالغرب الإسلامي**، ط:1، الجزائر: أنتير سيتي.

4- الجميل محمد بن فارس، (د. ت)، "آراء ابن الحاج في تعليم الصبيان: دراسة مقارنة"، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية**، العدد:65. ص ص:8-46.

5- الجوهري؛ إسماعيل بن حماد(393هـ)، (1979)، ج:1، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، ط:2، بيروت: دار العلم للملايين.

6- حجازي نعيمة بنت عبد العزيز، (سبتمبر2022)، "تأديب الأولاد في ضوء الكتاب والسنة: دراسة تأصيلية موضوعية"، **مجلة أبحاث**، اليمن: كلية التربية جامعة الحديدة. مج:9، ع:3.

7- ابن حجر العسقلاني(ت853هـ)، (2013)، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تحقيق: شعيب أرناؤوط وآخرون، ط:1، ج: 18، دمشق-الحجاز: دار الرسالة العالمية.

8- خطيف صابرة، (2003- 2004)، **فقهاء تلمسان والسّلطة الزّيانية - الجهاز الدّيني والتّعليمي - (633 - 791 هـ / 1235 - 1388م)**، مذكّرة ماجستير، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة.

9- ابن خلدون أبو زكرياء يحي (ت780 هـ)، (1980)، **بغية الرّواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، ج:1. الجزائر: المكتبة الوطنية.

10- ابن خلدون عبد الرحمن (ت808 هـ)، **المقدّمة**، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، 1979/ دار الفكر، بيروت لبنان، 2004.

11- سحنون محمد، (1972)، **آداب المعلمين**، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب، تونس: دار الكتب الشرقية.

12- صابر حسن محمد أبو سليمان، (1984)، **مورد الظمآن في علوم القرآن**، ط:1، الهند: الدار السلفية.

13- صقر عبد البديع، (1981)، **الوصايا الخالدة**، ط:4، القاهرة- مصر: دار التراث العربي للطباعة.

14- الغزالي أبو حامد (ت505هـ)، (2014)، **أيها الولد**، ط:2، لبنان: بيروت، دار المنهاج للنشر والتوزيع.

15- الفيروزآبادي محمد بن يعقوب، (2004)، **القاموس المحيط**، تقديم: أبو الوفا نصر الحوريني، ط:1، القاهرة: دار الكتاب الحديث.

16- القابسي أبو الحسن علي، (1986)، **الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين**، تحقيق: أحمد خالد، ط:1، تونس: الشركة التونسية للتوزيع.

17- ابن قيّم الجوزية محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت 751هـ)، (2003م)، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، ط:7، ج:2، بيروت: دار الكتاب العربي.

18- ابن قيّم الجوزية محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت 751هـ)، (د. ت)، **تحفة المودود بأحكام المولود**، تحقيق: عثمان أبو جمعة ضميرية، المملكة العربية السعودية: دار عالم الفوائد.

19- المازوني أبو زكرياء يحي بن موسى بن عيسى بن يحي المغيلي (ت883هـ)، (2004)، **الدّرر المكنونة في نوازل مازونة**، تحقيق: مختار حساني، ج:1، بوزريعة - الجزائر: مخبر المخطوطات.

20- المالكي أبو بكر عبد الله بن محمد، (1994)، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية**، تحقيق: بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، ط:2، ج:1، بيروت- لبنان: دار الغرب الإسلامي.

21- المجليدي أحمد بن سعيد (ت1094 هـ)، (د.ت)، **التّيسير في أحكام التّسعير**، تحقيق: موسى لقبال، الجزائر: الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع.

22- المراكشي عبد الواحد(ت647هـ)،(1997)، **وثائق المرابطين والموحدين**، تحقيق: حسين مؤنس، ط:1، مصر: مكتبة الثقافة الدينية.

23- ابن مرزوق التّلمساني(ت781 هـ)، (2008)، **المناقب المرزوقية**، تحقيق: سلوى الزاهري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء: المملكة المغربية.

24- **المعجم الوسيط**، (2004)، مجمع اللغة العربية (جمهورية مصر العربية)، ط:4، ج:1، القاهرة: دار الشروق الدولية.

25- ابن منقذ أسامة(ت584هـ)، (1987)، **لباب الآداب**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مصر: دار الجيل للطباعة.

26- الهاشمي السيد أحمد، **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب**، (1979)، ج:1، ط:27، مصر: المكتبة التجارية الكبرى.

27- الهلالي أبو إسحاق إبراهيم بن هلال(ت903هـ)، (2013)، **النوازل الهلالية (المعروف بـ: نوازل ابن هلال)**، جمع وترتيب: علي بن أحمد الجزولي(ت1049هـ)، تحقيق: أحمد بن عبد الكريم نجيب، ط:1، المملكة المغربية- الدر البيضاء: دار الجيل.

28- الونشريسي أحمد بن يحي (ت914 هـ)،(1981)، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب**، تخريج: جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي.